ثقافة التسامح والقبول الإنساني

نبيل صموئيل*

ما أحوجنا هذه الأيام إلى تبني ونشر وتفعيل ثقافة التسامح والقبول الإنساني، في عصرٍ تزداد فيه التوترات والتعصب والتطرف ونفي الآخر المختلف، والذي ربما يقود إلى العداوة ورفض الآخرين المختلفين؛ ليصل الأمر إلى الكراهية الشديدة، بل ويصل إلى القتل والذبح!

فثقافة التسامح هي تلك الثقافة التي تضبط علاقة الإنسان بنفسه وبعقائده وأفكاره، بحيث لا تصل إلى مستوى التعصب الأعمى، الذي يقود صاحبه إلى القتل وممارسة التدمير باسم القيم، بل وأحيانًا باسم الدين.

وقد أصبح التسامح وقبول الآخر اليوم ليس فضيلة من الفضائل التي كان يحلم بها الأقدمون بالمدينة الفاضلة، ولكنه أصبح ضرورة مُلحَّة إنسانية واجتماعية وثقافية وسياسية؛ حتى يستطيع الفرد أن يقف أمام أي مخاوف من متربصٍ يستهدف الإنسان الآخر المختلف عنه أو عن حضارته أو ثقافته أو بلده.

والتسامح قيمة إنسانية عابرة لكل الاختلافات بين البشر سواء طبيعية كانت أم التي يصنعها الإنسان، سواء أكانت هذه الاختلافات دينية أم مذهبية، واختلاف النوع الاجتماعي، واختلافات من هم بغير إعاقة عن ذوي الإعاقة، والاختلافات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسات وغيرها، فلا يمكن التمييز بين هذه الاختلافات فكلها تستدعي التسامح كقيمة إنسانية عابرة لكل هذا التنوع والاختلافات بين البشر.

ويُعد التسامح والقبول الإنساني أحد القيم الإنسانية المهمة، ويُعرف بأنه الانفتاح على التنوّع، والتعدّد بمختلف أشكاله. كما ويرتبط التسامح باستعداد المرء لقبول وتحمُّل معتقدات وممارسات وعادات مختلفة؛ وبالتالي ثقافات تختلف عما يعتقده ويمارسه ويعيش فيه، مع

* خبير التنمية الاجتماعية – مصر.

الاعتراف والقبول بحقوق كل الأفراد والجماعات التي لديها أفكار وآراء ومواقف وسلوك في اختلاف، وحيث يمثل ذلك الطريق إلى الشعور بالسلام الداخلي، ولصناعة السلام بين البشر على تنوُّعاتهم واختلافاتهم، مع الإقرار والاعتراف بالحق في التنوع والاختلاف، وبالمساواة بين الأطراف كافة ودون رفض ودون عدم قبولٍ أو إبطاءٍ أو تراخٍ.

وهو ما يستدعي الاهتمام بدور العقل والفكر والعمل معًا لتحقيق السلام العادل، من خلال إبراز قيم التسامح والحوار البنَّاء والعدل، وأثر ذلك في مختلف الأصعدة على مستوى الأسرة، والمدرسة، والمجتمع، والدولة وبين الشعوب والدول.

وفي هذا الإطار يمكن أن نُعطي للتسامح والقبول الإنساني تعريفًا شاملًا بأنَّه:

"التأكيد الواعي على الأحكام، والمُعتقَدات التي تنطوي على مبادئ العدالة، والمساواة، والرعاية، والنظر بتقدير واحترام في تفرُّد واختلاف الآخرين؛ أي تقديم الاحترام، والمساواة للذين يختلفون في خصائصهم العِرقيَّة، والدينيَّة، والجنسية، وغيرها".

ويحمل تعريف التسامح وقبول الإنسان الآخر بمختلف أشكاله أساسيَّاتٍ مشتركة؛ مثل قبول تنوع واختلاف الآخرين، واتِّخاذ الإنسان موقفًا عادلًا، وموضوعيًا تجاه الأشخاص الذينَ يختلفونَ عنه في مختلف الجوانب، ورَفض التعصّب والتحزُّب بمختلف أشكاله.

ولقيمة التسامح والقبول الإنساني مبادئ جوهرية:

- الحُكم بموضوعيَّة؛ فالكثير من الناس يُطلقونَ الأحكام الناقدة على الآخرين بغير موضوعيَّة، أو دون معرفة حقيقية وتفكير وتأمل مسبق في تلكَ الأحكام؛ ولهذا ينبغي أن يحاول الشخص تفهّم الآخرين بشكلٍ غير انحيازيّ، أو تعصُّبي.
- العقلانيّة: قد لا يقتنع شخصٌ ما بوجهة نظر الآخرين الذين يختلفون عنه؛ ممَّا يبرِّر له معارضتهم، بشرط ألّا تكون هذه المعارضة تحض على الرفض والكراهية والعداوة.
- التسامح قناعة داخلية: قد يُظهر البعض تسامحهم تجاه الآخرين عن غير قناعة؛ إذ إنهم قد يتسامحون مع الآخرين لأنّهم في موضع قوَّة والخوف من معارضتهم، أو تجنُّبًا للمشاكل، أو رغبةً بأن يُقال عنه أنَّه شخص متسامح، وذلكَ لا يُعدُّ شخصًا متسامحًا، فالتسامح الحقيقيّ هو قيمه وقناعة الشخص داخليًا بضرورة قبول الآخر والاختلاف وعدم التصرُّف بناءً على اختلافه مع آراء الآخرين.

أهمية ثقافة التسامح:

لنشر ثقافة التسامح أثرٌ طيِّب في حياة الأفراد والمجتمعات، فالمواطنون الذينَ يسلكون بقيمة التسامح والقبول الإنساني تجاه الآخرين المُختلِفين في مجتمعاتهم، فإن ذلك يعاون على أن يسود الوُدُّ والتعاطف والتماسك والسلام في المجتمع. ويحث المواطنين ويشجعهم على الاستعداد للمشاركة والتعاون مع الآخرين حتى مع تنوعهم واختلافاتهم؛ مما يُعضِّد من قوة هذه المجتمعات، وتماسكها وتضافرها.

وبشيوع ثقافة التسامح وقبول الآخر والمبنية على العقلانيَّة لدى الأشخاص، يزيد ذلك من قدرتهم على رؤية الآخرين الذين يختلفون عنهم على أنَّهم شركاء الوطن. وكما يُوجِد التسامح والقبول الإنساني بيئةً تجذب وتنمِّي المواهب، والقدرات بين الجميع؛ وبالتالي فإنَّ التنوُّع البشري الخلَّاق سيجد له مساحةً ومكانًا كبيرًا في تلكَ الشعوب؛ ممَّا يدعم ويُسْهم في التقدُّم، والابتكار، والتماسك الاجتماعي والنموِّ الاقتصاديّ.

ولنشر ثقافة التسامح والقبول الإنساني في المجتمعات أهميَّة كبيرة في حفظ حقوق الإنسان، وتحقيق السلام، والديمقراطيَّة، وكبح التطرف الفكري، والحدِّ من العنف، والنزاعات، والحروب. ونظرًا لأهميَّة نشر ثقافه التسامح وقبول الآخر، فقد أصبحت هناك ضرورة قصوى لتنشئة الأطفال ليتعلموا ويمارسوا التسامح منذ سنواتهم الأولى؛ إذ يبدأ اكتساب الطفل لصفاته الأخلاقيَّة من الوالدين في المنزل، فإذا كانَ الوالدان مع الآخرين في حالة تسامح فإنَّ الطفل سيكون انعكاسًا لما يعايشه في المنزل، وهو ما يستدعي الحذر الشديد من استخدام العبارات السلبيَّة، والعُنصريَّة أمامَ الطفل.

كما يمكن تعليم الطفل ثقافاتِ الآخرين، وأفكارهم، ودَفعه إلى مشاركة الأنشطة مع الأصدقاء الذين يختلفونَ عنه، فالطفل عندما يكون منفتحًا على الثقافات، والأشخاص، والأديان المختلفة سيكون من السهل عليه قبول اختلاف الآخرين عندما يكبر؛ وبالتالي يكون في حالة تسامح مع نفسه ومع الآخرين.

وللمدرسة دورٌ كبيرٌ في توعية الأطفال بضرورة احترام الآخرين، وإعداد برامج تعليميَّة وتوعويَّة عن التسامح والقبول الإنساني، ولزيادة الاندماج بينَ الأطفال على اختلافهم، وذلك من خلال أدوات وآليَّات عملية، كممارسة الرياضة والفنون بكل أنواعها وعقد الرحلات، والمؤتمرات المشتركه الصيفيَّة.

ويلعب الإعلام دورًا مُهمًا في نشر ثقافة التسامح وقبول الآخر، وذلك بإيصالِ صورٍ غير

مُتعصّبة للأشخاص المُختلفين، وحث المواطنين على احترام التنوع البشري والاختلافات بأنواعها كافةً؛ وكذلك التعقُّل في نشر واستغلال الأحداث التي من شأنها إيقاظ وتنامي التطرف وردود الأفعال السلبية، والتي يمكن أن تؤدي إلى إحداث توترات وانشقاقات بين المُختلِفين، وتُشعل الاضطرابات بينهم، وعلى الآباء ضرورة الانتباه للمحتوَى الإعلامي الذي يشاهده أطفالهم سواء متلفزًا أم الوسائل الإلكترونية؛ لِئلَّا يكون مُحرِّضًا ومُشجِّعًا على رفض الآخرين المختلفين والعداوة ضدهم.

ويجدر بالذكر هنا أنَّ التسامح موجودٌ عبرَ التاريخ، وعبر مختلف الحضارات، والدُّول، والأمم.

أمَّا في العصر الحديث، فقد ظهرَ مصطلح التسامح في القرن السادس عشر بإنجلترا؛ من أجل تأكيد حقِّ الأفراد في العبادة وهو خُلُق لا بُدّ من اتِّخاذه كبُنية أساسيَّة في سياسات البشر، وتطلُّعاتهم، وتنمية القِيَم، والفضائل لديهم بغَضِّ النظر عن انتماءاتهم، وأديانهم، وطوائفهم، ومعتقداتهم؛ وذلك بهدف بناء عالَم سالم وسعيد، وجديد تسوده روابط الأُلفة، والروحانيَّة.

ما أحوجنا اليوم إلى نشر ثقافة التسامح والقبول الإنساني!، باعتبارها الركيزة والقاعدة الجوهرية الأصيلة لبناء عالم يتحقق فيه ويسوده السلام والأمان بين البشر، وتتحقق به العدالة بين الجميع دون تمييز أو محاباة بين البشر على أُسُس ثقافية أو عِرْقية أو دينية أو مذهبية أو اجتماعية، وغيرها من أنواع الاختلافات والتنوع بين البشر ، ويجد كل فرد في هذا العالم – مهما كان تفرُّده واختلافه – مكانًا مريحًا سعيدًا كباقي البشر.